

معرفة
بِاللَّهِ

ALLAH
KNOWING
Knowingallah.com

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

نداءُ اللهِ تعالى للمؤمنينَ

النداء الثالث عشر

الأمر بتقوى الله
حق تقاته



علي بن نايف الشحود

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

النداء الثالث عشر

الأمر بتقوى الله حق تقاته

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } (٣١) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } (٣٢) وَلَعَسَ أَنْ يَكُونَ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَىٰ الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } (٣٣) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } (٣٤) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَصْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ } (٣٥) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } (٣٦) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلْمًا لِلْعَالَمِينَ } (٣٧) وَيَلِيهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ } (٣٨) كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ } (٣٩) سورة آل عمران



يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ يَتَّقُوهُ حَقَّ تَقَاتِهِ ، وَذَلِكَ بِأَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى ، وَأَنْ يُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرُ ، وَأَنْ يُذَكَّرَ فَلَا يُنْسَى ، وَيَقُولُ لَهُمْ : حَافِظُوا عَلَى الْإِسْلَامِ فِي حَيَاتِكُمْ لِتَمُوتُوا عَلَيْهِ ، فَمَنْ مَاتَ عَلَى شَيْءٍ بُعِثَ عَلَيْهِ .

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِالتَّمَسُّكِ بِحَبْلِ اللَّهِ ، أَيِّ بِعَهْدِهِ وَدِينِهِ وَذِمَّتِهِ وَقُرْآنِهِ ، وَمَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنَ الْإِلْفَةِ وَالْمَحَبَّةِ وَالاجْتِمَاعِ ، وَيُنْهَاهُمْ عَنِ التَّفَرُّقِ ، وَيَطْلُبُ إِلَيْهِمْ أَنْ يَذْكُرُوا نِعْمَتَهُ عَلَيْهِمْ إِذْ أَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، وَأَخَى بَيْنَهُمْ بَعْدَ الْعَدَاوَةِ الْمُسْتَحْكِمَةِ ، وَالْفُرْقَةَ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ ، فَقَدْ كَانُوا عَلَى مِثْلِ شَفِيرِ النَّارِ ، بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَضَلَالِهِمْ وَاقْتِتَالِهِمْ ، فَهَدَاهُمْ اللَّهُ وَأَنْقَذَهُمْ .

وَكَمَا بَيَّنَّ لَهُمْ رَبُّهُمْ ، فِي هَذِهِ الْآيَاتِ ، مَا يُضْمِرُهُ لَهُمْ الْيَهُودُ مِنْ شَرٍّ وَخِدَاعٍ وَغِشٍّ ، وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ فِي حَالِ جَاهِلِيَّتِهِمْ مِنْ كُفْرٍ وَفُرْقَةٍ وَاقْتِتَالٍ ، وَمَا صَارُوا إِلَيْهِ بِفَضْلِ الْإِسْلَامِ مِنْ وَحْدَةٍ وَإِخَاءٍ ، كَذَلِكَ يَبَيِّنُ سَائِرَ حُجَجِهِ فِي تَنْزِيلِهِ عَلَى رَسُولِهِ ، لِيُعِدَّهُمْ لِلْإِهْتِدَاءِ الدَّائِمِ ، حَتَّى لَا يَعُودُوا إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ التَّفَرُّقِ وَالْعَدَاوَةِ وَالْإِقْتِتَالِ.



يَنْهَى اللَّهُ تَعَالَى الْمُسْلِمِينَ عَنْ أَنْ يَكُونُوا كَأَهْلِ الْكِتَابِ
الَّذِينَ تَفَرَّقُوا فِي الدِّينِ ، وَكَانُوا شِيعاً تَذْهَبُ كُلُّ شِيعَةٍ
مِنْهَا مَذْهَباً تَدْعُو إِلَيْهِ ، وَتُخْطِئُ غَيْرَهَا ، وَلِذَلِكَ تَعَادَوْا
وَاقْتَتَلُوا .

وَلَوْ كَانَ فِيهِمْ جَمَاعَةٌ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ ، وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ ،
وَتَنْتَجِهُ إِلَى غَايَةِ وَاحِدَةٍ ، لَمَا تَفَرَّقُوا ، وَلَمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ .
وَهَؤُلَاءِ الْمُخْتَلِفُونَ الْمُتَفَرِّقُونَ لَهُمْ عَذَابٌ وَخُسْرَانٌ فِي
الدُّنْيَا ، وَعَذَابٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ فِي الآخِرَةِ .

وَفِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ تَبْيِضُ وُجُوهُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَيُسْرُونَ لِمَا
يَعْمَلُونَهُ مِنْ حُسْنِ الْعَاقِبَةِ . وَتَسْوَدُ وُجُوهُ أَهْلِ الْكُفْرِ
وَالضَّلَالَةِ وَالْاِخْتِلَافِ ، لِمَا يَرَوْنَهُ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ ، وَمَا يَحِلُّ
بِهَا مِنَ النَّكَالِ وَالْوَبَالِ . وَيَسْأَلُ الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أَهْلِ النَّفَاقِ وَالْاِخْتِلَافِ ، وَيُقَالُ لَهُمْ :
أَكْفَرْتُمْ بِاللَّهِ ، وَخَالَفْتُمْ مَا أَمَرَكُمْ بِهِ مِنَ الْاِعْتِصَامِ بِحَبْلِ
اللَّهِ ، وَبِالْوِفَاقِ وَاتِّحَادِ الْكَلِمَةِ؟ فَذُوقُوا الْعَذَابَ الَّذِي
تَسْتَحِقُّونَهُ بِسَبَبِ كُفْرِكُمْ .

وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ بِالإِيمَانِ وَالْعَمَلِ
الصَّالِحِ ، وَبِاتِّحَادِ الْكَلِمَةِ ، وَعَدَمِ التَّفَرُّقِ ، فَيَكُونُونَ فِي
الدُّنْيَا فِي نَعِيمٍ ، مَا دَامُوا عَلَى تِلْكَ الْحَالِ ، وَيَكُونُونَ فِي



الْآخِرَةِ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ ، وَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ لِيَكُونُوا
فِيهَا خَالِدِينَ أَبَدًا .

جَمِيعٌ مَّنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَبِيدٌ لِلَّهِ ، وَهُمْ مُلْكٌ لَهُ ،
يَتَصَرَّفُ فِي شُؤُونِهِمْ بِحَسَبِ سُنَنِ الْحَكِيمَةِ الَّتِي لَا تَغْيِيرَ
فِيهَا وَلَا تَبْدِيلَ ، وَهُوَ الْحَاكِمُ الْمُتَصَرَّفُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ،
وَإِلَيْهِ تَصِيرُ أُمُورُ الْخَلْقِ جَمِيعًا فَيَحَاسِبُهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ .

يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُمْ خَيْرُ أُمَّةٍ فِي الْوُجُودِ ،
لأنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ إِيمَانًا صَادِقًا بِاللَّهِ ، وَيُظْهِرُ أَثْرَهُ فِي
نُفُوسِهِمْ ، فَيَنْزِعُهُمْ عَنِ الشَّرِّ ، وَيَصْرِفُهُمْ إِلَى الْخَيْرِ ،
فَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ
الْمُنْكَرَاتِ وَمَا حَرَّمَ اللَّهُ مِنَ الظُّلْمِ وَالْبَغْيِ .

وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ إِيمَانًا صَحِيحًا يَسْتَوِي عَلَى النُّفُوسِ ،
وَيَمْلِكُ أَرْمَةُ الْقُلُوبِ فَيَكُونُ مَصْدَرُ الْفَضَائِلِ وَالْأَخْلَاقِ
الْحَسَنَةِ ، كَمَا تُؤْمِنُونَ أَنْتُمْ ، أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ ، لَكَانَ ذَلِكَ
خَيْرًا لَهُمْ مِمَّا يَدْعُونَهُ مِنْ إِيمَانٍ لَا يَزَعُ النُّفُوسَ عَنِ الشُّرُورِ ،
وَلَا يُبْعِدُهَا عَنِ الرَّذَائِلِ . وَبَيْنَ أَهْلِ الْكِتَابِ جَمَاعَةٌ مُؤْمِنُونَ





مُخْلِصُونَ فِي إِيْمَانِهِمْ ، وَلَكِنْ أَكْثَرَهُمْ فَاسِقُونَ عَنْ دِينِهِمْ ، مُتَمَرِّدُونَ فِي الْكُفْرِ .

إنهما ركيزتان تقوم عليهما الجماعة المسلمة ، وتؤدي بهما دورها الشاق العظيم . فإذا انهارت واحدة منهما لم تكن هناك جماعة مسلمة ، ولم يكن هنالك دور لها تؤديه :

ركيزة الإيمان والتقوى أولاً .. التقوى التي تبلغ أن توفي بحق الله الجليل .. التقوى الدائمة اليقظة التي لا تغفل ولا تفتتر لحظة من لحظات العمر حتى يبلغ الكتاب أجله :

{ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته } ..

اتقوا الله - كما يحق له أن يتقى - وهي هكذا بدون تحديد تدع القلب مجتهداً في بلوغها كما يتصورها وكما يطيقها . وكلما أوغل القلب في هذا الطريق تكشفت له آفاق ، وجدّت له أشواق . وكلما اقترب بتقواه من الله ، تيقظ شوقه إلى مقام أرفع مما بلغ ، وإلى مرتبة وراء ما ارتقى . وتطلع إلى المقام الذي يستيقظ فيه قلبه فلا ينام!

{ ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون } ..

والموت غيب لا يدري إنسان متى يدركه . فمن أراد ألا يموت



إلا مسلماً فسبيله أن يكون منذ اللحظة مسلماً ، وأن يكون في كل لحظة مسلماً . وذكر الإسلام بعد التقوى يشي بمعناه الواسع : الاستسلام . الاستسلام لله ، طاعة له ، واتباعاً لمنهجه ، واحتكاماً إلى كتابه . وهو المعنى الذي تقرره السورة كلها في كل موضع منها ، على نحو ما أسلفنا .

هذه هي الركيزة الأولى التي تقوم عليها الجماعة المسلمة لتحقيق وجودها وتؤدي دورها . إذ أنه بدون هذه الركيزة يكون كل تجمع تجمعاً جاهلياً . ولا يكون هناك منهج لله تتجمع عليه أمة ، إنما تكون هناك مناهج جاهلية . ولا تكون هناك قيادة راشدة في الأرض للبشرية ، إنما تكون القيادة للجاهلية .

فأما الركيزة الثانية فهي ركيزة الأخوة . . الأخوة في الله ، على منهج الله ، لتحقيق منهج الله :

{ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم ، إذ كنتم أعداء ، فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخواناً . وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها . كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون } . .

فهي أخوة إذن تنبثق من التقوى والإسلام . . من الركيزة





الأولى . . أساسها الاعتصام بحبل الله - أي عهده ونهجه
ودينه - وليست مجرد تجمع على أي تصور آخر ، ولا على أي
هدف آخر ، ولا بواسطة حبل آخر من حبال الجاهلية
الكثيرة!

{ واعتمصوا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا } ..

هذه الأخوة المعتصمة بحبل الله نعمة يمتن الله بها على
الجماعة المسلمة الأولى . وهي نعمة يهبها الله لمن
يحبهم من عباده دائماً . وهو هنا يذكرهم هذه النعمة .
يذكرهم كيف كانوا في الجاهلية « أعداء » . . وما كان
أعدى من الأوس والخزرج في المدينة أحد . وهما الحيان
العربيان في يثرب . يجاورهما اليهود الذين كانوا يوقدون
حول هذه العداوة وينفخون في نارها حتى تأكل روابط
الحيين جميعاً . ومن ثم تجد يهود مجالها الصالح الذي لا
تعمل إلا فيه ، ولا تعيش إلا معه . فألف الله بين قلوب
الحيين من العرب بالإسلام . . وما كان إلا الإسلام وحده
يجمع هذه القلوب المتنافرة . وما كان إلا حبل الله الذي
يعتصم به الجميع فيصبحون بنعمة الله إخواناً . وما يمكن
أن يجمع القلوب إلا أخوة في الله ، تصغر إلى جانبها الأحقاد
التاريخية ، والثارات القبلية ، والأطماع الشخصية والرايات
العنصرية . ويتجمع الصف تحت لواء الله الكبير المتعال . .



{ واذكروا نعمة الله عليكم ، إذ كنتم أعداء ، فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخواناً } ..

ويذكرهم كذلك نعمته عليهم في إنقاذهم من النار التي كانوا على وشك أن يقعوا فيها ، إنقاذهم من النار بهدايتهم إلى الاعتصام بحبل الله - الركنية الأولى - وبالتأليف بين قلوبهم ، فأصبحوا بنعمة الله إخواناً - الركنية الثانية - : { وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها } .

والنص القرآني يعتمد إلى مكنن المشاعر والروابط : « القلب .. فلا يقول : فألف بينكم . إنما ينفذ إلى المكنن العميق : { فألف بين قلوبكم } فيصور القلوب حزمة مؤلفة متألفة بيد الله وعلى عهده وميثاقه . كذلك يرسم النص صورة لما كانوا فيه . بل مشهداً حياً متحركاً تتحرك معه القلوب : { وكنتم على شفا حفرة من النار } .

وبينما حركة السقوط في حفرة النار متوقعة ، إذا بالقلوب ترى يد الله ، وهي تدرك وتنقذ! وحبل الله وهو يمتد ويعصم . وصورة النجاة والخلص بعد الخطر والترقب! وهو مشهد متحرك حي تتبعه القلوب واجفة خافقة! وتكاد العيون تتملأه من وراء الأجيال! وقد ذكر محمد بن إسحاق في السيرة وغيره أن هذه الآية

نزلت في شأن الأوس والخزرج . وذلك « أن رجلا من اليهود مر بملأ من الأوس والخزرج ، فسأه ما هم عليه من الاتفاق والألفة ، فبعث رجلاً معه ، وأمره أن يجلس بينهم ، ويذكر لهم ما كان من حروبهم يوم « بُعثت »! وتلك الحروب . ففعل . فلم يزل ذلك دأبه حتى حميت نفوس القوم ، وغضب بعضهم على بعض ، وتثاوروا ، ونادوا بشعارهم . وطلبوا أسلحتهم . وتوعدوا إلى « الحرّة » فبلغ ذلك النبي - صلى الله عليه وسلم - فأتاهم ، فجعل يسكنهم ، ويقول : « أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم » **وتلا عليهم هذه الآية ، فندموا على ما كان منهم ، واصطلحوا وتعانقوا وألقوا السلاح رضي الله عنهم .**

وكذلك بين الله لهم فاهتدوا ، وحق فيهم قول الله سبحانه في التعقيب في الآية :

{ **كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون** } .

فهذه صورة من جهد يهود لتقطيع حبل الله بين المتحابين فيه ، القائمين على منهجه ، لقيادة البشرية في طريقه . . هذه صورة من ذلك الكيد الذي تكيده يهود دائما للجماعة المسلمة ، كلما تجمعت على منهج الله واعتصمت بحبله . وهذه ثمرة من ثمار طاعة أهل الكتاب . كادت ترد المسلمين الأولين كفاراً يضرب بعضهم رقاب

بعض . وتقطع بينهم حبل الله المتين ، الذي يتأخون فيه مجتمعين . وهذه صلة هذه الآية بالآيات قبلها في هذا السياق .

على أن مدلول الآية أوسع مدى من هذه الحادثة . فهي تشي - مع ما قبلها في السياق وما بعدها - بأنه كانت هناك حركة دائبة من اليهود لتمزيق شمل الصف المسلم في المدينة ، وإثارة الفتنة والفرقة بكل الوسائل . والتحذيرات القرآنية المتوالية من إطاعة أهل الكتاب ، ومن الاستماع إلى كيدهم ودسهم ، ومن التفرق كما تفرقوا . . هذه التحذيرات تشي بشدة ما كانت تلقاه الجماعة المسلمة من كيد اليهود في المدينة ، ومن بذورهم لبذور الشقاق والشك والبلبلة باستمرار . . وهو دأب يهود في كل زمان . وهو عملها اليوم وغداً في الصف المسلم ، في كل مكان!

فأما وظيفة الجماعة المسلمة التي تقوم على هاتين الركيزتين لكي تنهض بها . . هذه الوظيفة الضرورية لإقامة منهج الله في الأرض ، ولتغليب الحق على الباطل ، والمعروف على المنكر ، والخير على الشر . . هذه الوظيفة التي من أجلها أنشئت الجماعة المسلمة بيد الله وعلى عينه ، ووفق منهجه . . فهي التي تقررها الآية التالية: } ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف



وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون } ..

فلا بد من جماعة تدعو إلى الخير ، وتأمّر بالمعروف وتنهى عن المنكر . لا بد من سلطة في الأرض تدعو إلى الخير وتأمّر بالمعروف وتنهى عن المنكر . والذي يقرر أنه لا بد من سلطة هو مدلول النص القرآني ذاته . فهناك « دعوة » إلى الخير . ولكن هناك كذلك « أمر » بالمعروف . وهناك « نهى » عن المنكر . وإذا أمكن أن يقوم بالدعوة غير ذي سلطان ، فإن « الأمر والنهي » لا يقوم بهما إلا ذو سلطان ..

هذا هو تصور الإسلام للمسألة .. إنه لا بد من سلطة تأمر وتنهى .. سلطة تقوم على الدعوة إلى الخير والنهي عن الشر .. سلطة تتجمع وحداتها وترتبط بحبل الله وحبل الأخوة في الله .. سلطة تقوم على هاتين الركيزتين مجتمعتين لتحقيق منهج الله في حياة البشر .. وتحقيق هذا المنهج يقتضي « دعوة » إلى الخير يعرف منها الناس حقيقة هذا المنهج . ويقتضي سلطة « تأمر » بالمعروف « وتنهى » عن المنكر .. فتطاع .. والله يقول : { وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله } فمنهج الله في الأرض ليس مجرد وعظ وإرشاد وبيان . فهذا شطر . أما الشطر الآخر فهو القيام بسلطة الأمر والنهي ، على تحقيق المعروف



ونفي المنكر من الحياة البشرية ، وصيانة تقاليد الجماعة
الخيرية من أن يعيث بها كل ذي هوى وكل ذي شهوة
وكل ذي مصلحة ، وضمانة هذه التقاليد الصالحة من أن
يقول فيها كل امرئ برأيه وبتصوره ، زاعماً أن هذا هو
الخير والمعروف والصواب!

والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر -
من ثم - تكليف ليس بالهين ولا باليسير ، إذا نظرنا إلى
طبيعته ، وإلى اصطدامه بشهوات الناس ونزواتهم ،
ومصالح بعضهم ومنافعهم ، وغرور بعضهم
وكبريائهم . وفيهم الجبار الغاشم . وفيهم الحاكم
المتسلط . وفيهم الهابط الذي يكره الصعود . وفيهم
المسترخي الذي يكره الاشتداد . وفيهم المنحل الذي
يكره الجد . وفيهم الظالم الذي يكره العدل . وفيهم
المنحرف الذي يكره الاستقامة . . وفيهم وفيهم ممن
ينكرون المعروف ، ويعرفون المنكر . ولا تفلح الأمة ، ولا
تفلح البشرية ، إلا أن يسود الخير ، وإلا أن يكون المعروف
معروفاً ، والمنكر منكراً . . وهذا ما يقتضي سلطة للخير
وللمعروف تأمر وتنهى . . وتطاع . .

ومن ثم فلا بد من جماعة تتلاقى على هاتين الركيزتين :



الإيمان بالله والأخوة في الله ، لتقوم على هذا الأمر العسير الشاق بقوة الإيمان والتقوى ثم بقوة الحب والألفة ، وعلتاها ضرورة من ضرورات هذا الدور الذي ناطه الله بالجماعة المسلمة ، وكلفها به هذا التكليف . وجعل القيام به شريطة الفلاح . فقال عن الذين ينهضون به : { وأولئك هم المفلحون } ..

إن قيام هذه الجماعة ضرورة من ضرورات المنهج الإلهي ذاته . فهذه الجماعة هي الوسط الذي يتنفس فيه هذا المنهج ويتحقق في صورته الواقعية . هو الوسط الخير المتكافل المتعاون على دعوة الخير .

المعروف فيه هو الخير والفضيلة والحق والعدل . والمنكر فيه هو الشر والرذيلة والباطل والظلم . عمل الخير فيه أيسر من عمل الشر . والفضيلة فيه أقل تكاليف من الرذيلة . والحق فيه أقوى من الباطل . والعدل فيه أنفع من الظلم . فاعل الخير فيه يجد على الخير اعواناً . وصانع الشر فيه يجد مقاومة وخذلاناً . ومن هنا قيمة هذا التجمع . إنه البيئة التي ينمو فيها الخير والحق بلا كبير جهد ، لأن كل ما حوله وكل من حوله يعاونه . والتي لا ينمو فيها الشر والباطل إلا بعسر ومشقة ، لأن كل ما حوله يعارضه ويقاومه .





والتصور الإسلامي عن الوجود والحياة والقيم والأعمال والأحداث والأشياء والأشخاص . . يختلف في هذا كله عن التصورات الجاهلية اختلافاً جوهرياً أصيلاً . فلا بد إذن من وسط خاص يعيش فيه هذا التصور بكل قيمه الخاصة . لا بد له من وسط غير الوسط الجاهلي ، ومن بيئة غير البيئة الجاهلية .

هذا الوسط الخاص يعيش بالتصور الإسلامي ويعيش له؛ فيحيا فيه هذا التصور ، ويتنفس أنفاسه الطبيعية في طلاقة وحرية ، وينمو نموه الذاتي بلا عوائق من داخله تؤخر هذا النمو أو تقاومه . وحين توجد هذه العوائق تقابلها الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وحين توجد القوة الغاشمة التي تصد عن سبيل الله تجد من يدافعها دون منهج الله في الحياة .

هذا الوسط يتمثل في الجماعة المسلمة القائمة على ركيزتي الإيمان والأخوة . الإيمان بالله كي يتوحد تصورهما للوجود والحياة والقيم والأعمال والأحداث والأشياء والأشخاص ، وترجع إلى ميزان واحد تقوم به كل ما يعرض لها في الحياة ، وتتحاكم إلى شريعة واحدة من عند الله ، وتتجه بولائها كله إلى القيادة القائمة على تحقيق منهج الله في الأرض . . والأخوة في الله . كي يقوم كيانها على الحب والتكافل اللذين تختفي في ظلالهما مشاعر الأثرة ،



وتتضاعف بهما مشاعر الإيثار . الإيثار المنطلق في يسر ،
المندفع في حرارة ، المطمئن الواثق المرتاح .

وهكذا قامت الجماعة المسلمة الأولى - في المدينة - على
هاتين الركيزتين . . على الإيمان بالله : ذلك الإيمان المنبثق
من معرفة الله - سبحانه - وتمثل صفاته في الضمائر؛
وتقواه ومراقبته ، واليقظة والحساسية إلى حد غير
معهود إلا في الندرة من الأحوال . وعلى الحب . الحب
الغياض الرائق والود . الود العذب الجميل ، والتكافل .
التكافل الجاد العميق . . وبلغت تلك الجماعة في ذلك كله
مبلغاً ، لولا أنه وقع لعد من أعلام الحالمين! وقصة
المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار قصة من عالم الحقيقة ،
ولكنها في طبيعتها أقرب إلى الرؤى الحالمة! وهي قصة
وقعت في هذه الأرض . ولكنها في طبيعتها من عالم
الخلد والجنان!

وعلى مثل ذلك الإيمان ومثل هذه الأخوة يقوم منهج الله
في الأرض في كل زمان . .

ومن ثم يعود السياق فيحذر الجماعة المسلمة من التفرق
والاختلاف؛ وينذرهم عاقبة الذين حملوا أمانة منهج الله
قبلها - من أهل الكتاب - ثم تفرقوا واختلفوا ، فنزع الله
الراية منهم ، وسلمها للجماعة المسلمة المتأخية .





فوق ما ينتظرهم من العذاب ، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه : { ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم . يوم تبيض وجوه وتسود وجوه . فاما الذين اسودت وجوههم : أكفرتم بعد إيمانكم؟ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون } ..

وهنا يرسم السياق مشهداً من المشاهد القرآنية الفائضة بالحركة والحيوية .. فنحن في مشهد هول . هول لا يتمثل في الفاظ ولا في أوصاف . ولكن يتمثل في آدميين أحياء في وجوه وسلمات .. هذه وجوه قد أشرقت بالنور ، وفاضت بالبشر ، فابيضت من البشر والبشاشة ، وهذه وجوه كمدت من الحزن ، وغبرت من الغم ، واسودت من الكآبة .. وليست مع هذا متروكة إلى ما هي فيه . ولكنه اللذع بالتبكي والتأنيب: { أكفرتم بعد إيمانكم؟ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون! } ..

{ وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون } .

وهكذا ينبض المشهد بالحياة والحركة والحوار . . على طريقة القرآن .





وهكذا يستقر في ضمير الجماعة المسلمة معنى التحذير
من الفرقة والاختلاف . ومعنى النعمة الإلهية الكريمة . .
بالإيمان والائتلاف .

وهكذا ترى الجماعة المسلمة مصير هؤلاء القوم من أهل
الكتاب ، الذين تحذر أن تطيعهم . كي لا تشاركهم هذا
المصير الأليم في العذاب العظيم . يوم تبيض وجوه ،
وتسود وجوه . .

ويعقب على هذا البيان لمصائر الفريقين تعقيباً قرآنياً
يتمشى مع خطوط السورة العريضة ، يتضمن إثبات صدق
الوحي والرسالة . وجدية الجزاء والحساب يوم القيامة .
والعدل المطلق في حكم الله في الدنيا والآخرة . وملكية
الله المفردة لما في السماوات وما في الأرض . ورجعة الأمر
إليه في كل حال :

{ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ، وما الله يريد ظلماً
للعالمين . والله ما في السماوات وما في الأرض . وإلى الله
ترجع الأمور } . .

تلك الصور . تلك الحقائق . تلك المصائر . . تلك آيات الله
وبيناته لعباده : نتلوها عليك بالحق . فهي حق فيما تقرره
من مبادئ وقيم؛ وهي حق فيما تعرضه من مصائر



وجزاءات . وهي تنزل بالحق ممن يملك تنزيلها؛ وممن له الحق في تقرير القيم ، وتقرير المصائر ، وتوقيع الجزاءات . وما يريد بها الله أن يوقع بالعباد ظلماً . فهو الحكم العدل . وهو المالك لأمر السماوات والأرض . ولكل ما في السماوات وما في الأرض . وإليه مصير الأمور . إنما يريد الله بترتيب الجزاء على العمل أن يحق الحق ، وأن يجري العدل ، وأن تمضي الأمور بالجد اللائق بجلال الله . . لا كما يدعي أهل الكتاب أنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودات!

بعدئذ يصف الأمة المسلمة لنفسها! ليعرفها مكانها وقيمتها وحقيقتها؛ ثم يصف لها أهل الكتاب - ولا يبخسهم قدرهم ، إنما يبين حقيقتهم ويطمعهم في ثواب الإيمان وخيره - ويطمئن المسلمين من جانب عدوهم .

فهم لن يضروهم في كيدهم لهم وقتالهم ولن ينصروا عليهم . وللذين كفروا منهم عذاب النار في الآخرة ، لا ينفعهم فيه ما أنفقوا في الحياة الدنيا بلا إيمان ولا تقوى : { كنتم خير أمة أخرجت للناس . تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله . ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم . منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون . لن يضروكم إلا أذى ، وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون . ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا - إلا بحبل من الله



وحبل من الناس - وباءوا بغضب من الله ، وضربت عليهم المسكنة . ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون الأنبياء بغير حق . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . ليسوا سواء . من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات ، وأولئك من الصالحين . وما يفعلوا من خير فلن يكفروه ، والله عليم بالمتقين . إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر ، أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته . وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون } ..

إن شطر الآية الأولى في هذه المجموعة يضع على كاهل الجماعة المسلمة في الأرض واجباً ثقيلاً ، بقدر ما يكرم هذه الجماعة ويرفع مقامها ، ويفردها بمكان خاص لا تبلغ إليه جماعة أخرى : { كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله .. } .

إن التعبير بكلمة { أخرجت } المبني لغير الفاعل ، تعبير يلفت النظر . وهو يكاد يشي باليد المدبرة اللطيفة ، تخرج هذه الأمة إخراجاً؛ وتدفعها إلى الظهور دفعاً من ظلمات الغيب ، ومن وراء الستار السرمدى الذي لا يعلم ما وراءه إلا



الله . . إنها كلمة تصور حركة خفية المسرى ، لطيفة
الدبيب . حركة تخرج على مسرح الوجود أمة . أمة ذات دور
خاص . لها مقام خاص ، ولها حساب خاص : { **كنتم خير
أمة أخرجت للناس** } ..

وهذا ما ينبغي أن تدركه الأمة المسلمة؛ لتعرف حقيقتها
وقيمتها ، وتعرف أنها أخرجت لتكون طليعة ، ولتكون لها
القيادة ، بما أنها هي خير أمة . والله يريد أن تكون القيادة
للخير لا للشر في هذه الأرض . ومن ثم لا ينبغي لها أن
تتلقى من غيرها من أمم الجاهلية . إنما ينبغي دائماً أن
تعطي هذه الأمم مما لديها . وأن يكون لديها دائماً ما
تعطيه . ما تعطيه من الاعتقاد الصحيح ، والتصور الصحيح
، والنظام الصحيح ، والخلق الصحيح ، والمعرفة الصحيحة ،
والعلم الصحيح . . هذا واجبها الذي يحتمه عليها مكانها ،
وتحتمه عليها غاية وجودها . واجبها أن تكون في
الطليعة دائماً ، وفي مركز القيادة دائماً . ولهذا المركز
تبعاته ، فهو لا يؤخذ ادعاء ، ولا يسلم لها به إلا أن تكون
هي أهلاً له .

وهي بتصورها الاعتقادي ، وبنظامها الاجتماعي أهل له .
فيبقى عليها أن تكون بتقدمها العلمي ، وبعمارتها للأرض





- قياماً بحق الخلافة - أهلاً له كذلك . . ومن هذا يتبين أن المنهج الذي تقوم عليه هذه الأمة يطالبها بالشيء الكثير؛ ويدفعها إلى السبق في كل مجال . . لو أنها تتبعه وتلتزم به ، وتدرک مقتضياته وتكاليفه .

وفي أول مقتضيات هذا المكان . أن تقوم على صيانة الحياة من الشر والفساد . . وأن تكون لها القوة التي تمكنها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فهي خير أمة أخرجت للناس . لا عن مجاملة أو محاباة ، ولا عن مصادفة أو جزاف - تعالى الله عن ذلك كله علواً كبيراً - وليس توزيع الاختصاصات والكرامات كما كان أهل الكتاب يقولون : « نحن أبناء الله وأحباؤه » . . كلا! إنما هو العمل الإيجابي لحفظ الحياة البشرية من المنكر ، وإقامتها على المعروف ، مع الإيمان الذي يحدد المعروف والمنكر : { **تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** } . .

فهو النهوض بتكاليف الأمة الخيرة ، بكل ما وراء هذه التكاليف من متاعب ، وبكل ما في طريقها من أشواك . . إنه التعرض للشر والتحريض على الخير وصيانة المجتمع من عوامل الفساد . . وكل هذا متعب شاق ، ولكنه كذلك ضروري لإقامة المجتمع الصالح وصيانتته؛ ولتحقيق الصورة التي يحب الله أن تكون عليها الحياة . .



ولا بد من الإيمان بالله ليوضع الميزان الصحيح للقيم ،
والتعريف الصحيح للمعروف والمنكر . فإن اصطلاح
الجماعة وحده لا يكفي . فقد يعم الفساد حتى تضطرب
الموازين وتختل . ولا بد من الرجوع إلى تصور ثابت للخير
والشر ، وللفضيلة والرذيلة ، وللمعروف والمنكر . يستند
إلى قاعدة أخرى غير اصطلاح الناس في جيل من الأجيال .

وهذا ما يحققه الإيمان ، بإقامة تصور صحيح للوجود
وعلاقته بخالقه . وللإنسان وغاية وجوده ومركزه الحقيقي
في هذا الكون . . ومن هذا التصور العام تنبثق القواعد
الأخلاقية . ومن الباعث على إرضاء الله وتوقي غضبه يندفع
الناس لتحقيق هذه القواعد . ومن سلطان الله في الضمائر
، وسلطان شريعته في المجتمع تقوم الحراسة على هذه
القواعد كذلك .

ثم لا بد من الإيمان أيضا ليملك الدعوة إلى الخير ، الأمرون
بالمعروف ، الناهون عن المنكر ، أن يمضوا في هذا الطريق
الشاق ، ويحتملوا تكاليفه . وهم يواجهون طاغوت الشر
في عنفوانه وجبروته ، ويواجهون طاغوت الشهوة في
عرامتها وشدتها ، ويواجهون هبوط الأرواح ، وكلل العزائم
، وثقله المطامع . . وزادهم هو الإيمان ، وعدتهم هي





الإيمان . وسندهم هو الله . . وكل زاد سوى زاد الإيمان ينفد .
وكل عدة سوى عدة الإيمان تُفَلِّ ، وكل سند غير سند الله
ينهار!

وقد سبق في السياق الأمر التكليفي للجماعة المسلمة أن
ينتدب من بينها من يقومون بالدعوة إلى الخير ، والأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر ، أما هنا فقد وصفها الله
سبحانه بأن هذه صفتها .

ليدلها على أنها لا توجد وجوداً حقيقياً إلا أن تتوافر فيها
هذه السمة الأساسية ، التي تعرف بها في المجتمع
الإنساني . فإما أن تقوم بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر - مع الإيمان بالله - فهي موجودة وهي
مسلمة . وإما أن لا تقوم بشيء من هذا فهي غير موجودة
وغير متحققة فيها صفة الإسلام .

وفي القرآن الكريم مواضع كثيرة تقرر هذه الحقيقة .
ندعها لمواضعها . وفي السنة كذلك طائفة سالحة من
أوامر الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتوجيهاته نقتطف
بعضها :

عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « **من رأى منكم منكراً**



فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع
فبقلبه وذلك أضعف الإيمان «

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله -
صلى الله عليه وسلم - : « لما وقعت بنو إسرائيل في
المعاصي نهتهم علماءهم ، فلم ينتهوا ، فجالسوهم
وواكلوهم وشاربوهم ، فضرب الله تعالى قلوب بعضهم
ببعض ، ولعنهم على لسان داود وسليمان وعيسى بن
مريم . . ثم جلس - وكان متكئاً - فقال : لا والذي نفسي
بيده حتى تأطروهم على الحق أطراً « أي تعطفوهم
وتردوهم .

وعن حذيفة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - « والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف
ولتتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم
عقاباً ، منه ثم تدعونه فلا يستجيب لكم » .

وعن عرس ابن عميرة الكندي - رضي الله عنه - قال : قال
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إذا عملت الخطيئة
في الأرض كان من شهدها فأنكرها كمن غاب عنها ، ومن
غاب عنها فرضيها كمن شهدها » .





وعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال : قال رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - : « **إن من أعظم الجهاد كلمة
عدل عند سلطان جائر** » .

وعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - : « **سيد الشهداء حمزة . ورجل
قام إلى سلطان جائر ، فأمره ونهاه ، فقتله** » .

وغيرها كثير . . وكلها تقرر أصالة هذه السمة في المجتمع
المسلم ، وضرورتها لهذا المجتمع أيضاً . وهي تحتوي
مادة توجيه وتربية منهجية ضخمة . وهي إلى جانب
النصوص القرآنية زاد نحن غافلون عن قيمته وعن حقيقته.





يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
نداءُ اللهِ تعالى للمؤمنينَ

النداء الثالث عشر

علي بن نايف الشحود